ذكر هلاك المركيس صاحب صور لعنه الله:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء، قتل المركيس لعنه الله، أرسل إليه ملك الانكتار اثنين من الداوية، فأظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه.

وقال العماد الكاتب فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما: من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا: ملك الانكتار، وذكرا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر، وكان خدم أحدهما ابن بارزان والآخر صاحب صيدا لقربهما من المركيس، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه، ثم قتلهما الأفرنج أشر قتلة.

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية، استناب ملك الانكتار على صور ابن أخته الكندهري. وهو ابن أخت ملك الأفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما سار إلى صور ابتنى بزوجة المركيس بعد موته بليلة واحدة وهي حبلة أيضاً، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين ملك الانكتار وبينه.

وفي النوادر: وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف، ثم خرج فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين، وكان خفيفاً من الرجال، فمازالا يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار، وقام بالأمر اثنان، فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك، واعتمدوا الأمر وتدبروا المكان.

وفي تاريخ ابن كثير: وكان ملك الانكتار يراسل السلطان صلاح الدين في المصالحة والمسالمة كلما كان يرى أن المركيس يراسله ويهادنه، ثم لما هلك المركيس—لعنه الله— طاب قلب ملك الانكتار، وذهب خوفه، وقوي عزمه، وأرسل إلى السلطان في طلب المناصفة على البلاد سوى

القدس، فإنه للمسلمين، سوى القمامة، فلم يجب السلطان إلى ذلك.

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم:

وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقاً كثيراً من أهلها، وأسروا طائفة من الداوية بها.

وقال العماد: وكانت قلعة داروم ضرراً عظيماً لما كانت مع الافرنج، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم، وتسلمها علم الدين قيصر على أن يحفظها، فلما شرع الافرنج في اعادة عمارة عسقلان ترددوا إليها مراراً وأشرفوا عليها، وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم، ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى بعد أن أحدثوا فيها نقباً، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا، ولما عرف الوالي أنهم مأخوذون عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعقرها، وإلى الذخائر فأحرقها وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها، ورحلوا عنها ونزلوا على منزل يقال له الحسي وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام، وذلك في يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور، ثم تركوا خيامهم وساروا قصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل جناب، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة في الغاب فقاتلوهم قتالاً شديداً، وقتل منهم في جملة من قتل كند كبير، وعادوا مفلولين مخذولين، ثم رحل الافرنج من الحسي يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور، وتفرقوا فرقتين: بعضهم عاد إلى عسقلان، وبعضهم جاءوا إلى بيت جبرين.

ذكر قصد الافرنج بيت المقدس شرفه الله:

وفي يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور نزلت الافرنج

بجموعهم الوافرة بتل الصافية، ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون، فأرجفت الألسن على أنهم على قصد بيت المقدس، ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة، وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله بنقل الأزواد، وفرق الأبراج على الأمراء والأجناد، وكان قد سار من عرب الاسلام جماعة للغارة على يافا، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو، فنزلوا في بعض الطريق يقتسمون فوقف عليهم عسكر للعدو وأخذوهم، وهرب منهم ستة نفر، فوصلوا إلى السلطان وأخبروه بالخبر، ووصلت الجواسيس وأصحاب ا لأخبار من جانب العدو أنهم مقيمون بالنطرون لنقل الأزواد والآلات التي تدعو الحاجة إليها في الحرب، فإذا حصل عندهم مايحتاجون إليه قصدوا القدس، وكان السلطان رحمه الله قد سير إلى العساكر من سائر الأطراف يسابقون إلى الحضور، وكان أول من قدم بدر الدين دلدرم مع خلق كثير من التركمان، ولقيه السلطان وأكرمه، ثم وصل بعده عز الدين ابن المقدم بعسكر حسن وأطلاب جيدة، ثم أمر السلطان بخروج العسكر إلى البدو، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفونهم وجرت وقعة بعد وقعة، وكبسوهم كبسة بعد كبسة، وكان الأمير دلدرم صاحب تل باشر في اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين، فبعث من أصحابه إلى طريقهم من يافا، فجازت بهم فرسان من الفرنج، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا، وفي يوم السبت سلخ الشهر نزلت الناس إليهم وقاتلوهم في خيامهم، وركب العدو وساق إلى قلونية، وهي ضيعة من ضياع القدس على فرسخين، ثم عادوا بائدي الشأن بادين الشين وعساكر الموحدين قد ركبوا أكتافهم ورجعوا سالمين.

وفي النوادر: وكان طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو، فأمر السلطان من في اليزك أن يعملوا معهم مايمكنهم، وكان في اليزك بدرالدين دلدرم، فكمن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة، فمر بهم جمع من خيالة العدو يحمون قافلة تحمل ميرة، فحمل عليهم وجرى قتال

عظيم فقتلوا منهم ثلاثين نفراً، وأسروا جماعة، ووصلت الأسرى يوم السبت تاسع وعشرين جمادى الآخرة، وخرجت الأتراك على جماعة منهم فأخذوا منهم وقتلوا، وجرحت من الأتراك جماعة.

ذكر كبسة الأفرنج على عسكر مصر الواصلين

كان السلطان صلاح الدين رحمه الله يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله يدعوهم نجده لأهل القدس على أهل الكفر، فضرب العسكر خيامهم على بلبيس مدة حتى اجتمع الرفاق، وانضم إليهم التجار، وللفرنج جواسيس يجسون الأخبار ويعرفون ملكهم بذلك، وجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة أن العدو ملك الانكتار ركب في سبعمائة فارس مردفين بألف راجل، وسار عصر يوم الأحد، ولايدري أي جانب قصدوا، فجرد السلطان أميراً وعدة من العادلية، وأمرهم أن يأخذوا في طريق البرية فعبروا على ماء الحسي قبل وصول العدو إليه، وكان مقدم العسكر المصري فلك الدين أخو العادل لأمه، ولم يسأل عن المنازل والمراحل، وقصد أقرب الطرق، وترك الجمال على طريق أخرى سائرة، وجاء ونزل على ماء يعرف بالخويلفة، ونادى تلك الليلة: إنا جزنا مظان المخافة فلا رحيل إلى الصباح، فاغتر الناس بذلك وناموا مغفلين فصبحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة التامة وبغتونهم بغتة، فركب كل منهم الى وجهة، ومنهم من ركب فرسه عريانا، فتفرقوا في البرية وعاد معظمهم إلى مصر، وفيهم من عاج إلى طريق الكرك، فأخذ الكفار جمالاً لاتعد وأحمالاً لاتحد.

وقال ابن كثير: فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم خلقا كثيراً، وأسروا منهم خمسمائة أسير، وغنموا شيئاً كثيرا من الأموال والجمال والبغال والخيل، وكانت جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، والتجار الذين معهم نهبوا كلهم فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً.

وفي النوادر: وكان السلطان قد أوصى عسكر مصر بالاحتراز عند مقاربة العدو، وكانت معهم قوافل كثرة، واتصل خبرهم إلى العدو من العرب المفسودين، وركب اللعين ملك الانكتار في ألف راكب مردفين بألف راجل، وسار حتى أتى تل الصافية فبات وعلق على خيله فيه ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسي، وكان السلطان قد أرسل جماعة وصلوا إلى الماء المذكور قبل العدو، لكن لم يقيموا عليه، وساروا حتى اتصلوا بالعسكر المصري والقوافل، ثم قصدوا قرب الطريق، فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقال له ا لخويلفة، وتفرق الناس لأجل الماء، فأخبرت العرب العدو بذلك، وهم نازلون برأس الحسي، فقاموا من وقتهم وسروا حتى أتوهم قبيل الصبح فكبسوا عليهم، وكان الشجاع القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب، وعسكر الملك العادل، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من المذكورين كحسين ا لجرا حي، وفلك الدين وبني الجاولي وآخرين، وقتل من العدو زهاء مائة فارس، وقيل لم يقتل سوى عشرة أنفس، ولم يقتل من المسلمين المعروفين سوى الحاجب يوسف وابن الجاولي الصغير، وتفرق الناس في البرية ورموا أموالهم، وجمع العدو ما أمكنهم جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة، وسائر أنواع الأموال، وكلف ملك الانكتار الجمالين بخدمة الجمال والخربندية بخدمة البغال والساسة بخدمة الخيل، وسار في جحفل من الغنيمة يطلب عسكره، فنزل على الخويلفة وسقى منها دوابه، ثم سار حتى أتى الحسي وكانت هذه الوقعة صبيحة يوم ا لثلاثاء الحادي عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة.

ووصل الخبر إلى السلطان في عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة، وكنت جالساً في خدمته، فما مرّ بالسلطان خبر أ نكى منه في قلبه، ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه، وأخذت في تسكينه وهو لايقبل ذلك، ولكن يقول: الأمر كله لله ويكرر ذلك.

قال: وكان وصول العدو إلى مخيمهم في سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم أظهروا فيه من السرور والفرح مالايمكن وصفه، وأعادوا خيامهم إلى الوطأة على بيت نوبة، وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصل لهم من الغنائم والأشياء الواصلة من مصر، ورتبوا جماعة على لدّ يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس.

وفي المرآة: وكانوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر، ثم عادوا عن ذلك وقووا عزمهم على القدس، واستدعوا الفارس والراجل فاجتمع عندهم خلق عظيم، فساروا إلى بيت نوبة.

ذكر تصميم الأفرنج على محاصرة القدس:

ولما جرى ماذكرنا شاور السلطان الأمراء في القدس وقال لهم: أنتم جند الاسلام ومنعته، ودماء المسلمين وأموالهم وأهاليهم متعلقة بكم، فإن جبنتم طووا البلاد طياً وكنتم المطالبين بذاك، فقالوا: نحن مماليكك ومانطير رؤوسنا إلاّ بين يديك، وافترقوا على هذا، ثم تهيأ السلطان لذلك، وأكمل السور، وعمق الخنادق، ونصب الآلات والمجانيق، وأمر بتغويرماحول القدس من المياه، ثم أحضر الأمراء ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة وفيهم أبو الهيجاء السمين والمشطوب والأسدية بكمالهم فاستشارهم السلطان فيما قد دهم من الأمر الفظيع، فأفاضوا في الكلام، وأشار كل برأي، وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كانت الصحابة رضي الله عنهم يفعلون، فأجابوا إلى ذلك كلهم، هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر، فسكت القوم حتى كأن على رؤوسهم الطير، ثم قال:«الحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جند الاسلام اليوم، وليس لهذا العدو من يلقاه غيركم، فإن

طويتم أعنتكم— والعياذ بالله— طووا البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم، وأكلتم بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم»، فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أنعمت علينا وأعطيتنا وأعنتنا، وليس لنا إلاّ رقابنا، وهي بين يديك، والله مايرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت بين يديك، فقال بقية القوم مثلما قال: ففرح السلطان وطاب قلبه، ومدّ لهم سماطاً حافلاً، وانصرفوا من بين يديه على ذلك، ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف أن يجري علينا في هذه البلدة كما جرى في عكا، ثم يأخذون بلاد الاسلام بلداً بلداً، والمصلحة أن نلقاهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرى سلم الله العسكر ومضى القدس وقد انحفظت بلاد الاسلام بدون القدس مدة طويلة، وكان مما بعثوا إلى السلطان يقولون: إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصر الأفرنج فتكون أنت معنا أو بعض أهلك حتى يكون الجيش تحت أمره، فإن الأكراد لايطيعون الترك، والترك لايطيعون الأكراد، فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة وبات ليلة ذلك أجمع مهموماً كئيباً يفكر فيما قالوا: ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيماً عندهم نائباً عنه بالقدس الشريف، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضرت صلاة الجمعة وأذن المؤذنون قام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيماً، وتضرع لديه وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه في كشف هذه الضائقة العظيمة.

وفي المرآة: وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة اختلف الأمراء في الليل، فقال بعضهم: مانقيم حتى يكون السلطان معنا، نخاف أن يجري علينا ماجرى على أهل عكا.

وبلغ السلطان ذلك فبعث إليهم يقول: هذا مجد الدين بن فرخشاه

ابن أخي يكون عندكم، وأكون أنا من برا أذب عنكم، فقالوا: ماهذا برأي، وإنما نخرج ونصدقهم الحملة فان قهرناهم وإلاّ سلم العسكر ونمضي إلى دمشق، فعزّ عليه ذلك خوفاً على القدس ومن فيه من المسلمين، وبات ليلة الجمعة ساجداً باكياً متضرعاً، وبعث بالصدقات إلى الفقراء، وطلع الفجر فجلس إلى الضحى يدعو، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى.

وكان جرديك في اليزك فجاءت منه رقعة يقول: قد ركبوا بأسرهم، وبات السلطان ليلة السبت قلقاً ماعرف المنام، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعاً فقال للسلطان: يهنيك رحلوا خلف الرملة، فسجد السلطان وانكشفت أخبارهم وسبب رحيلهم أن السلطان كان قد أمر بطم الصهاريج والآبار التي كانت حول القدس، فقال لهم ملك الانكتار: من أين نشرب؟ قالوا: من العيون التي حول القدس قالوا: يتخطفوننا.

وقال صاحب النوادر: قالوا: نشرب من نهر تقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ، فقال الملك: كيف نذهب إلى السقي؟ فقالوا: نقسم قسمين: قسم يركب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في المنزلة، ويكون الشرب في اليوم مرة، فقال الملك: إذا يأخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين، ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر منهم، وحكم الاثني عشر ثلاثة على عادتهم في النوازل، فباتوا يتشاورون، فرجح عندهم الرحيل، وقالوا: السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا فرحلوا.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما كان يوم السبت الحادي والعشرين من جمادى الآخرة جاءت الكتب من الحرس حول البلدان بأن الفرنج

اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الافرنسيس: إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس وقد بقي بيننا وبينه مرحلة، وقال ملك الانكتار: إن هذا البلد يشق علينا حصاره لأن المياه قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار، ثم اتفق الحال بينهم على أن حكموا [٢٧]، إلى آخر ماذكرناه، فرحلوا صوب الرملة.

وقال في النوادر: وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة، وعلى أعقابهم ناكصين، ووقف عسكرهم شاكين في السلاح إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرملة، وتواتر الخبر بذلك، وركب السلطان والناس، وكان يوم سرور وفرح.

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسارنحوهم خوفاً من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة مامعهم من الظهر والأموال، وكان ملك الانكتار لعنه الله يلهج بذلك كثيراً فخذلهم عن ذلك، وترددت الرسل من ملك الانكتار إلى السلطان في طلب الصلح، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر، وأن يعيد إليهم السلطان عسقلان، ويهب لهم أكبر كنيسة ببيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلا شيء، فامتنع السلطان من اعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، ولكن فرض على الزوار مالاً يؤخذ من كل منهم، فامتنع ملك الانكتار إلا أن تعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان، وصمم السلطان على عدم الاجابة.

وقال صاحب النوادر: ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو، حضر رسول الكندهري فقال: إن ملك ا لانكتار قد أعطاني البلاد الساحلية،

وهي الآن لي فأعد عليّ بلادي حتى أصالحك، و أكون أحد أولادك، فغضب السلطان لذلك غضباً شديد بحيث أنه أراد أن يبطش بالرسول، فأقيم من بين يديه، ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول، وكان جوابه بأن يكون الحديث بيننا في صور وعكا على ماكان من المركيس.

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان في جيشه العزيز حتى وافى يافا، فحاصرها حصاراً شديداً فافتتحها وغنم جيشه منها شيئا كثيراً، وامتنعت القلعة، فبالغ في أمرها حتى هانت ولانت ودانت، وكادوا أن يبعثوا إليه بأقاليدها ويأخذوا الأمان لكبيرها ووليدها، إذ أشرفت عايهم مراكب الانكتار على و جه البحر، فقويت رؤوسهم واستصعبت نفوسهم، وهجم اللعين ملك الانكتار فاستعاد البلد إليه وقتل من تأخر بها من المسلمين صبراً بين يديه، وتقهقر السلطان من منزلة الحصار إلى ماورائها خوفاً على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الانكتار يتعجب من شدة سطوة السلطان كيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين وغيره لايمكنه فتحه في عامين، ثم ألح في طلب الصلح على أن يكون عسقلان داخلاً في الصلح فامتنع السلطان من ذلك أشد الامتناع.

وفي المرآة: أقام السلطان بالقدس حتى يتيقن وصولهم إلى عكا، وخرج فنزل على يافا وحصرها وتعلق النقابون في الأسوار، وملك المدينة، وأشرفوا على أخذ القلعة، فصاح أهلها الأمان، ونهب المسلمون البلد، فوقف مماليك السلطان على الأبواب، كل من خرج ومعه شيء أخذوه، وعز ذلك على الأمراء والأكراد، وسلموا القلعة، وبعث السلطان إليها جماعة من أصحابه، وبقي فيها من الفرنج أربعون رجلاً، وبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب كثيرة فتوقفوا، وقويت نفوس الافرنج الذين في

القلعة، وعلموا أنها مراكب الانكتار، فرمى واحد نفسه في الماء وسبح إليهم وقال: تقدموا، فأرسوا إلى الميناء، وكانت خمسة وثلاثين مركباً، فهرب المسلمون من البلد، وتأخر السلطان إلى يازور، وجاء الانكتار فنزل في منزلة السلطان، ولم يكن معه سوى عشرين فارساً وثلاثمائة راجل، وعشرين خيمة، والسلطان في ألوف، فبعث إلى السلطان يقول: أنت سلطان عظيم ومعك هذا الجيش الكثير، ومعظم عساكر المسلمين فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولي وليس معي أحد، فغضب السلطان، وبات على غضب، فلما أصبح ركب وركبت العساكر وملك الانكتار نازل على حاله لم يصل إليه من الافرنج أحد، فحمل عليه المسلمون، وهو في عشرين فارساً وثلاثمائة راجل فلم يتحرك، فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب: ويحكم وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة؟! فلم يجبه أحد، وقال له الجناح: قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس، وأخذوا كسبهم، ويقال إن ملك الانكتار أخذ رمحه وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعترض أحد، وساق السلطان من حينه إلى النطرون ونزل في خيمة صغيرة وحده وانفرد، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه وجاءت رسل الملك في طلب الصلح.

وفي تاريخ ابن كثير: لما كان ملك الانكتار نازلاً في منزلة السلطان على ماذكرنا، كبس في بعض الليالي ملك الانكتار وهو في سبعة عشر فارساً، وقليل من الرجالة، فأركب السلطان بجيشه حوله وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا عن الحملة، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض عن شرب الدواء، هذا وملك الانكتار لعنه الله قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله وحرابه، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان، ولايهش في وجهه بطل من الشجعان، فعند ذلك كر السلطان راجعاً، ثم حصل لملك الانكتار بعد ذلك مرض شديد، وبعث إلى السلطان يطلب منه

فاكهـة وثلجاً، فـأمده السلطـان بذلـك فتوة وكـرماً، ثـم عوفي لعنـه الله، وتكررت رسلـه إلى السلطان لأجل الصلح، وذلـك لكثرة شوقـه إلى بلاده (٢٨).

وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصلح إن شاء الله تعالى.

وذكر في النوادر: في فتح يافـا ماملخصه: أن السلطان رحمه الله بلغه في العـاشر من رجـب أن الافرنـج قـد رحلوا طـالبين نحو بيروت، فبرز مـن القـدس إلى منزلـة يقـال لها الجيـب، وكان ولـده الملـك الظـاهر غـازي صاحـب حلب قـد قدم إليه يـوم السبت الخامس مـن رجب، ثـم رحل السلطان من الحبيب إلى بيت نوبة، ثـم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملـة، فنزل بها ضحـوة النهار على تلال بين الـرملة ولـدّ، وأقام بها بقيـة يوم الأحـد، ولما كانـت صبيحة يـوم الاثنين الرابـع عشر من رجـب ركب جـريدة حتى أتـى يازور وبيت دجـن وأشرف على يافا،ثـم عاد إلى منزلته وأقـام بها بقية يوم، ولما كان صبـاح يوم الثلاثاء الخامـس عشررحل إلى نحـو يافـا فخيم عليهـا ورتـب العسكر ميمنـة وميسرة وقلباً، وكـان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل، والعساكـر فيما بينهما، وزحفوا يـوم السادس عشر وأخـذ النقابـون النقب من شمالي الباب الشرقي في الزاوية طول البـدنة، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان في الحصـار الأول، وبناه الأفرنج، ودخل النقابـون فيه، وكان الملك في عكـا قد توجـه إلى نحو بيروت، وهذا الـذي حمل السلطان على نزوله على يـافا، وأقام السلطان تلـك الليلة هناك إلى أن مضى مـن الليل مقـدار ثلثـه، وعـاد إلى المنـزلـة، ولما أصبـح السلطـان عـزم على القتـال فقاتلوه، وجرح من المسلمين جماعة بالنشـاب والزنبورك من البلد، فمنهم الحاجب أبو بكر وختلج والي بعلبك، وأصيـب بعينه، وطغرل التاجر وقد استقـر في وجهه، وهما مـن خواص المماليـك ، وإيـاز جركـس وهو مـن كبارهم، ولما رأى العدو المخذول ماحل بـه أرسل رسولين نصرانياً وفرنجياً

يطلبان الصلح، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس قطيعة، فأجابوا إلى ذلك، ولكن اشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت التاسع عشر من رجب فإن جاءتهم نجدة وإلاّ تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الانتظار وصمم على القتال والمضايقة، ولم يزالوا يقاتلون في ذلك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم، ولم يقدر السلطان على البلد في ذلك اليوم بعد حرق النقوب في البدنة، وضاق صدره وندم على عدم اجابته للصلح، ولما كان يوم الجمعة الثامن عشر من رجب زحف السلطان وزحف ولده الظاهر زحفاً شديداً، وزحف العادل في الميسرة فإنه كان مريضاً، وارتفعت الأصوات وضربت الكوسات، وخفقت البوقات ورمت المنجنيقات، ووقعت تلك البدنة، وانفتح الطريق، ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطان يطلبان الأمان، فقال: قولا لهم يتجاوزوا إلى القلعة ويتركوا البلد، فدخل الناس البلد ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية.

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايماز النجمي، وكان في طرف الغور لحمايته من العدو الذي في عكا، يخبر فيه أن ملك الانكتار لماسمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت وعاد إلى قصد يافا، ولما كان سحر تلك الليلة سمع المسلمون بوق الفرنج وقد نعق، فعلموا بوصول النجدة، وكانوا نيفاً وخمسين مركبا منها خمسة عشر شيني، فوهب رجل من أهل القلعة نفسه للمسيح، وقفز من القلعة إلى الميناء وكان رملاً، فلم يصبه شيء، واشتد عدواً حتى أتى البحر فجاء له شيني فأخذه الملك فأخبره بالخبر، ولما تيقن الملك أن القلعة ماأخذت، اندفع يطلب الساحل، وان أول شيء ألقى من فيه إلى البر شينى الملك، وكان أحمر وقبته حمراء وبيرقه أ حمر وكان رنكه، ثم نزل كل من في الشواني إلى الميناء .

قال القاضي بهاء الدين: هذا كله وأناشاهد ذلك، وكان تحتي فرس

فسقت حتى أتيت إلى السلطان، وبين يديه الرسولان وقد أخذ القلم حتى يكتب لهما الأمان، فعرفته في أذنه ماجرى فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث فما كان إلاّ ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان، فصاح في الناس فركبوا، وقبض على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، وبقي السلطان جريدة إلى الليل، وبات في ليلته هناك، وخرج ملك الانكتار إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلي وأيبك العزيزي، وسنقر المشطوب، وبدر الدين دلدرم وغيرهم، وكان قد صادقهم، فقال لهم: إن هذا السلطان عظيم، ومافي الأرض في الاسلام أكبر منه ولا أعظم، كيف رحل عن مكانه بمجرد وصولي، والله مالبست لأمة حربي، وليس في رجلي إلا زربول البحر؟! ثم قال لأبي بكر: بالله عليك سلم على السلطان، وقل له يجيب إلى صلحي، فهذا أمر لابد منه في الأخير، وقد هلكت بلادي وراء البحر، ومادوام هذا مصلحة لالنا ولالكم، وجاء أبو بكر وعرف السلطان بذلك، وكان ذلك في أواخر يوم السبت التاسع عشر من رجب، فلما سمع السلطان أحضر أرباب المشورة وانفصل الحال على كون الجواب: انك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة، وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت عسقلان، وهذه يافا خربت أيضاً، فيكون لك من قيسارية إلى صور، فمضى إليه وعرفه ماقال فرده إليه ومعه رسول فرنجي، وان يقول الملك:إن قاعدة الفرنج إنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تابعا له وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعسقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، وكان جواب السلطان رحمه الله: حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل البلد قسمين: أحدهما لك وهو يافا وماوراءها، والثاني لي وهو عسقلان وماوراءها، ثم سار الرسولان ورحل السلطان وكان بيازور، ورتب اليزك بها والنقابين وأمر بخرابها وخرب بيت دجن، وسار حتى أتى الرملة

فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبي بكر، فأمر باكرامه، وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا، وتجديد السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي هاهنا، فأجابه السلطان: أما النزول عن عسقلان فلاسبيل إليه، وأما تشتيته فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت منه بالضرورة، وإذا سهل عليه أن يشتي هاهنا وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين، وهوشاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، أما يسهل عليّ أشتي وأصيف وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي ويحضر إلي ماأريده ومن أريده، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي عندي في الشتاء يكون غير العسكر الذي يكون في الصيف، ومع هذا أنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولاأزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، فلما سمع الرسول ذلك طلب ان يجتمع بالملك العادل، فأذن له في ذلك، فسار إلى خيمته، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارخوان.

ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا للانجاد، فجمع أرباب الرأي للمشورة، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة، ويرحل الثقل إلى الجبل، فأمر الثقل بالرحيل في عشية يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب، وسار هو رحمه الله جريدة في صبيحة يوم الثلاثاء حتى نزل على العوجاء، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها، وأن الملك فد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة، فوقع له أن يكبس عليه، وسار من أول الليل والأدلة من العرب تقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو، فوجدها يسيرة مقدار عشر خيم، فداخله الطمع، وحمل عليهم فلم يتحركوا من أماكنهم ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم فلم يجب أحد إليه سوى ولده الملك الظاهر فإنه تأهب للحملة فمنعه، فلما رأى

السلطان ذلك رأى أن وقوفه وحده خسارة، فأعرض عن القتال، وسار حتى أتى يازور وهو مغضب، فنزل بها ذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب، ثم أصبح يوم الخميس فسار إلى النطرون فنزل به فأرسل إلى العسكر فحضروا عنده يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب فبات به، ثم أصبح يوم الجمعة، وسار إلى الملك العادل يفتقده، ودخل القدس وصلى الجمعة به، ونظر إلى العمائر ورتبها ثم عاد من يومه إلى الثقل وبات فيه على النطرون.

وقدمت إليه العساكر، فأول من وصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل فتلقاه السلطان ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من رجب، فأكرمه وأنزله عنده في الخيمة، وقدم له تقدمة جليلة، ثم سار إلى خيمته وأقام السلطان بالنطرون، ولما كان يوم الخميس التاسع من شعبان قدم عسكر مصر وكان فيهم مجد الدين هلدري وسيف الدين يازكج وجماعة من الأسدية، وكان في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، وكان يوما مشهودا، ثم أنزلهم عنده ومد الخوان، ثم ساروا إلى منازلهم، ثم قدم الملك المنصور بن تقي الدين في صبيحة يوم الاثنين ثالث عشر شعبان، ونزل في مقدمة العسكر، ولما رأى السلطان أن العساكر قد تجمعت، جمع أرباب الرأي وقال: إن ملك الانكتار مرض مرضاً شديداً والافرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم، ونفقاتهم قد قلت، وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة الرملة.

ذكر كتاب الصلح

لما رضي ملك الانكتار بمارسم به السلطان صلاح الدين كتب كتاب الصلح في الثامن عشر من شعبان، وأكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم وأسقف وجاثليق، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحاً عظيماً.

وفي تاريخ النويري:واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ولم يحلف ملك الانكتار، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذروا بأن الملوك لايحلفون، وقنع السلطان بذلك، وحلف الكندهري ابن أخته وخليفته على الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الأفرنج، ووصل ابن الهنفري وباليان إلى خدمة السلطان، ومعهما جماعة من المقدمين،وأخذوا يد السلطان على الصلح، واستحلفوا الملك العادل والملكين: الأفضل والظاهر ابني السلطان صلاح الدين، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك، والأمير بدر الدين ـلدرم الياروقي صاحب تل باشر، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والأمير سيف الدين علي ابن أحمد المشطوب وغيرهم من المقدمين الكبار، وعقدت هدنة عامة في البر والبحر، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها ايلول الموافق لحادي عشرين شعبان، وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الأفرنج: يافا وعملها وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول الاسماعيلية في عقد هدنته، واشترط الافرنج دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، واستقرت القاعدة على ذلك، وأرسل السلطان مائة ألف نقاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان واخراج من بها من الأفرنج والألمان.

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تمّ هذا الأمر رحل السلطان إلى القدس في اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل كنيسة تعرف بصندحنة يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت في الاسلام دار علم قبل

أن يملك الأفرنج القدس ثم لما ملك الفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربعائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الاسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين ابن شداد رحمه الله، وأمر بأن تجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب قمامة مارستانا للمرضى، ووقف عليها مواضع، وسير أدوية وعقاقير عزيزة، وفوض القضاء والنظر في هذه الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور.

ثم عزم السلطان رحمه الله على أن يحج عامه هذا من القدس فكتب إلى الحجاز واليمن والديار المصرية والشامية ليعلموا ذلك وليتأهبوا له، وكان أخوه سيف الاسلام في اليمن، وكتب إليه أيضاً بذلك، ثم فنده الأمراء، وكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفاً على البلاد من استيلاء الأفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها والفساد، وذكر أن النظر في أحوال المسلمين واصلاح أمرهم ومصابرة عدوهم أفضل مما نوى والعدو المخذول مخيم بعد في الشام، فسمع السلطان منه وشكره على نصحه وعزم على ترك الحج عامه ذلك وكتب به إلى سائر الممالك، واستمر السلطان مقيما بالقدس جميع شهر رمضان، وكلما وفد أحد رؤساء النصارى للزيارة أولاه غاية الاكرام والاحسان تأليفاً لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الايمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة قمامة متنكراً، ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم بحيث لا يرى، والسلطان يعلم ذلك جملة وتفصيلا، لهذا يعاملهم بالاكرام والاحسان.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم إن السلطان رحمه الله فوض ولاية القدس الشريف إلى عز الدين

جرديك ووصاه بتهذيب الأمور، والأخذ بالحزم في كل شيء، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة، وكان الوالي قبله حسام الدين سياروخ وكان فيه دين ولين، وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وماوالاها، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين، وكذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ليعيد إليها الزراعة والعمران، وكان السلطان قد أعطى دستوراً للعسكر حين تم أمر الصلح، فكان أول من سار عسكر إربل فانهم ساروا في مستهل شهر رمضان، ثم سار بعده في ثانيه عسكر الموصل وسنجار والحصن، وفي يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان صلى الملك العادل الجمعة ثم انصرف عائداً إلى الكرك لينظر في أحواله ثم يعود إلى بلاده الشرقية ليدبرها، فإنه كان أخذها من السلطان، وودع السلطان، فلما وصل إلى العازرية ونزل بها، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه، فانفذ إلى السلطان وعرفه، وذكر أن يجتمع به، ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن الناقد بعد أن ولي نيابة وزارة بغداد، ومضمون كتابه أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة، والانكار عليه في تأخر رسله عن العتبة الشريفة، وأن يسير القاضي الفاضل إلى الديوان في تقرير قواعد بينه وبين السلطان، ووعد العادل شيئاً كثيراً إذا قرر ذلك، ولما سمع السلطان ذلك كره انفاذ رسول يسمع كلام الديوان، ووقع كلام كبير بين السلطان والعادل ثم قوي عزم السلطان على انفاذ الضياء الشهرزوري، وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية، وعرف الرسول بما وقع عند السلطان، ومن اجابته إلى انفاذ الرسول، ثم سار العادل يوم الاثنين طالباً جهة الكرك، وسار الضياء متوجهاً إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرين رمضان، وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين منه توجه الملك الظاهر بن السلطان إلى جهة حلب بعد أن أوصاه السلطان بالتقوى فانها رأس كل خير، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس.

وفي الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة سار الملك الأفضل بن السلطان متوجهاً إلى دمشق، ثم إن السلطان رحمة الله عليه لم يزل ينظر في أحوال الناس، ويعطي اقطاعات لأناس ودستوراً لآخرين، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكتار متوجهاً إلى بلاده مستهل شوال، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ثم يدخل دمشق ويقيم بها أياماً قلائل، ثم يعود إلى القدس ويزوره، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها، وينظر مصالحها.

قال القاضي بهاء الدين: وأمرني بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس السادس من شوال من هذه السنة.

قال القاضي: وودعته إلى البيرة، وهي قرية بين القدس ونابلس، ونزل بها وأكل فيها الطعام، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين علي المشطوب صاحبها، وأنه زاد في رسومها ونوائبها، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها، وأسقط رسومها الجائرة، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسبسطية وتفقد أحوالها.

قال ابن كثير: وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهرحمار بموضع يعرف بالفرنديسة، وأصبح راحلاً ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد، فإنه توفي بعد أيام، ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية، فقال: الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب، ولم يزل حتى بين كيفية بنائها، ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء

ونزل بطبرية وقت العشاء وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شوال، ففرح السلطان به فرحاً شديداً لأنه كان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الاسلام، وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء، ونزل بكرة الخميس، ونزل بقرب صفد تحت الجبل، وصعد السلطان إليها وأمر بتشييد مافيها من الخلل، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة، ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الحش وهي عامرة، وسار منها وخيم على مرج تبنين ووصى الوالي بعمارة قلعتها، ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب، ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من عمل صيدا ميسرة وعمل وادي تيم يمنة، على الضياع والقرى وعرس على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعبة، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا فخيم على جسر كامد، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب الياس، ثم رحل يوم الخميس إلى بيروت ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع، وأقام خمسة أيام على الاستراحة، ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين سامة بكل ماتوفرت به الكرامة، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف (٢٩) .

ولما أراد السلطان أن يرحل من بيروت وذلك في يوم السبت الحادي والعشرين من شوال قيل له إن الابرنس والأنطاكية قد وصل إلى الخدمة، متمسكاً بحبل العصمة، داخلاً في حكم الذمة، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام، وأذن للابرنس في الدخول عليه، فدخل عليه وقربه ورفع مجلسه، وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً، ووهب السلطان كلا منهم تشريفاً سرياً، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه.

وفي النوادر: وأنعم عليه بالعمق وزرعان ومزارع تغل عشرة آلاف دينار، ثم خرج السلطان يوم الأحد وبات بالمخيم على البقاع، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجر، وبات على مرج يبوس، ووصل هناك من أعيان دمشق من تلقاه بأنواع التحف من الفواكه وغيرها، ورحل يوم الثلاثاء وبات بالعرادة، وأصبح يوم الأربعاء السادس والعشرين من شوال، ودخل دمشق، وخرج كل من بالمدينة، وحشر الناس ضحى، وكان يوماً مشهوداً، وكانت غيبته عن دمشق أربع سنين وهو في الجهاد، وكان في دمشق أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك الظافر، وأولاده الصغار، وكان يحب البلد ويؤثر الاقامة فيه على سائر البلاد، وجلس للناس بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضر الناس عنده وتملوا برؤيته وطلعته المباركة، وأنشده الشعراء، وعم ذلك المجلس الخاص والعام، وقام بنشر جناح عدله وبهطل سحاب انعامه وفضله، وبكشف مظالم الرعايا.

وفي يوم الاثنين مستهل ذي القعدة اتخذ الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر، وأظهر فيها من بديع التجمل وغريبه مايليق بهمته، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كان خدمه به حين وصوله إلى حلب، وسأل السلطان الحضور في دعوته فحضر، وكان يوماً مشهوداً.

وفي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي القعدة قدم الملك العادل من الكرك، وخرج السلطان إلى لقائه، وقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهل ذي الحجة من هذه السنة، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق، وماكان ذلك إلا للوداع لأولاده وهو لايشعر، ثم أذن السلطان لولده الملك الظاهر لسفره إلى حلب محل ولايته، فودعه وداعاً لالقاء بعده، وسار إلى حلب، وبقي

عند السلطـان ولده الملـك الأفضل وأخـوه وبقية أهلـه، وخرجـت السنة والأمر على هذا.

ذكر بقية الحوادث

.... ومنها أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد مـن مدة عشرين سنة في غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليـأخذهـا فإنـه ليس يمنعه أحـد، وقدكـان مكذوبـاً عليه في ذلك، ومع هذا حبس وأهين وصودر.

وفي المرآة: اعتقله تحت التاج وأخفى أخبـاره بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر......

ومنها أنـه هربـت جماعة مـن العرب ودخلـوا مع الفـرنج، ثـم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان على أن يسرقوا ماقـدروا عليه من خيل الفرنج فساقوا خمسمائة فرس.

ومنهـا أن ملك الانكتـار جهـز مـن عدد المسلمين وأسلحتهـم التـي نهبوهـا شيئاً كثيراً في مـركب، وسفرهـا في البحر، فـأرسل الله تعـالى عليها ريحاً عاصفاً فغرق المركب، بما فيه ومن فيه.

ذكر من توفي فيها من الأعيان.....

ابن الفراش القاضي شمـس الدين محمد بن محمد بـن موسى المعروف بـابـن الفراش، كـان قـاضي العسـاكـر بـدمشق، ويـرسلـه السلطـان في الـرسالات إلى ملـوك الآفـاق، وتـوفي بملطية عـائداً مـن عنـد ابن قليـج أرسلان.

وقال العماد الكاتب: أرسله السلطـان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح

بينهم، فتردد سنة وعاد ووصل إلى ملطية وتوفي بها في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فافتدي منهم بخمسين ألف دينار، وتخلص إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف كما ذكرناه، فولاه نيابة نابلس، وكانت وفاته يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف، ودفن في داره.

وقال العماد: وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال.

وقال المؤيد: وكانت نابلس اقطاعه وتوفي فيها، ووقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس، وأقطع الباقي للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين وأميرين معه.

وفي المرآة: سيف الدين المشطوب، ملك الهكارية، واسمه علي بن أحمد الهكاري، كان شجاعاً صابراً في الحرب مطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرات الثلاث، وشهد فتح مصر، ولزم خدمة السلطان، واتفق أن السلطان اجتاز بنابلس في عوده إلى دمشق، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا، فقال: ماهؤلاء؟ قالوا: يتظلمون من المشطوب، وهو راكب بين يديه، فقال: ياعلي لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات يسمع الله، فكيف وهم يدعون عليك، واختلفوا في وفاته، فقال العماد: ومات المشطوب في نابلس في آخر شوال، وقال القاضي ابن شداد: مات بالقدس، وصلي عليه في المسجد الأقصى، ودفن بداره.

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، وكنيته أبو الحسن، صاحب دعوة الاسماعيلية بقلاع الشام، أصله من البصرة، توفي في هذه السنة.

قال بيبرس في تاريخه: كان عالماً فاضلاً أديباً، وكانت له معرفة وسياسة وحذق في اقامة الدعوة، واستجلاب للقلوب، ولم يقم أحد بعد مقامه.

وفي المرآة: وكان في حصن أَلَموت، فرأى منه الآمر في تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة، فسيره إلى حصون الشام، وكان مجيئه إلى الشام في أيام نور الدين محمود، فأقام والياً ثلاثين سنة، وجرت له مع السلطان قصص، وبعث إليه جماعة وثبوا عليه، وكان في عزم السلطان قصده، ولم يعطه طاعة قط، ولما صالح السلطان الأفرنج وعزم على قصده توفي، وتحكى عنه العجائب والغرائب.

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قلطمش بن أرسلان يبغو بن سلجوق، صاحب بلاد الروم، توفي في يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة، وكان ملكه في سنة احدى وخمسين وخمسمائة، وكان ذا سياسة حسنة وهيئة عظيمة وعدل وافر، وغزوات كثيرة، وكان له عشر بنين، قد ولى كل واحد منهم قطراً من بلاد الروم، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور، وكان أبوه قد أعطاه سيواس، فسولت له نفسه القبض على أبيه وأخوته والانفراد بالسلطنة، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان، فسار قطب الدين ملكشاه، وهجم على والده قليج الدين أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه وقال لوالده وهو في قبضته: أنا بين يديك أنفذ أمرك، ثم إنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولي عهده، ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية، ووالده في القبضة معه، وهو يظهر أن ما يفعله بأمر والده، وخرج عسكر قيسارية

لحربه، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان عند اشتغال العسكر بالقتال فرصة، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية، فأكرمه وعظمه كما يجب عليه، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة، وبقي أبوه قليج أرسلان يتردد في بلاده بين أولاده، كلما ضجر واحد منهم انتقل إلى الآخر حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب برغلو، فقوى أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع معه وحشد وسار معه إلى قونية وملكها وأخذها من ابنه ملكشاه، ثم سار إلى أقصرا فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات في التاريخ المذكور، فأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونيه فدفنه بها، واتفق موت ملكشاه بعد موت أبيه قليج أرسلان بقليل، فاستقر كيخسرو في ملك قونية، وأثبت أنه ولي عهد أبيه قليج أرسلان، ثم إن ركن الدين سليمان أخا غياث الدين كيخسرو قوي على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيراً بالملك الظاهر صاحب حلب، ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان، فرجع غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان، وملك بلاد الروم جميعاً، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم كذلك إلى أن قتل، وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، ثم توفي كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو، ثم توفي علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو، وكسره التتار سنة إحدى وأربعين وستمائة، وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن قطلمش بن أرسلان بن سلجوق، وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم في الحقيقة، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم، وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما ركن الدين وعز الدين فملكا

معا مـديدة، ثم انفرد ركـن الدين بالسلطنـة، وهرب أخوه عز الـدين إلى قسطنطينية، وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه، والبلاد في الحقيقة للتتر، ثـم إن البرواناه قتل ركـن الدين وأقـام ابن ركن الـدين يخطب لـه بالسلطنـة، والحكم للبرواناه، وهـو نائب التتر، كما سنـذكره إن شاء الله تعالى.

وفي تاريـخ بيبرس: والذي كان قليج أرسـلان فرقة لأولاده مـن بلاده: ركـن الـديـن سليمان دوقـات وأعمالها، غيـاث الـديـن كيخسرو قـونيـة وأعمالها، قطـب الـديـن سيـواس وأعمالها، وأقصرا وأعمالها، فلما مـات اختلفت الأخوة وتحاربوا، واتفقت وفاة ولـده قطب الدين على إثره، فقوي ركن الدين على أخوته وملك هذه الممالك جميعها منهم.

فصل فيما وقع من الحوادث في هذه السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسمائة:

استهلت هـذه السنة والخليفـة هو النـاصر لديـن الله، ويقال لها سنـة الملوك، لأنـه مات فيهـا ملوك كثيرة، وأعظمهـم وأجلهم السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن يوسـف بن أيـوب، والأتابـك عز الـدين مسعـود صاحب الموصل، وسيف الدين بكتمـر صاحب خلاط، وسلطانشـاه بن ألـب أرسلان صـاحـب خراسـان، وقيطرمـش المسجـدي شحنة بغـداد، والأمير داود صاحب مكـة، وسنذكر تراجمهم واحداً بعـد واحد بعون الله، ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه.

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين:

الأول في ترجمته: هويوسف بن أيوب بن شادي بن مروان.

وقال ابن خلكـان: ولقد تتبعت نسبهم كثيراً، فلم أجد أحـداً ذكر بعد

شادي أباً آخر حتى أني وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب ابني شادي لاغير، ويقال شادي بن مروان.

قال: ورأيت مدرجاً رتبه الحسن بن عرب بن عمران الجرشي يتضمن أن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن أسامة بن بيهس ابن الحارث صاحب الحمالة بن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ابن سعد بن قيس عيلان بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ثم رفع بعد هذا في النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام، ثم ذكر بعد ذلك أن علي بن أحمد بن أبي علي بن عبد العزيز يقال أنه ممدوح المتنبي وفيه يقول من جملة قصيدته:

شرق الجو بـــــــــالغبـــــــــار

إذا ســـــارعلي بـــــن أحمدالقمقـــــام

وأما حارثة بن عوف بن أبي حارثة صاحب الحمالة فهو الذي حمل ماء بين عبس وذبيان، وشاركه في الحمالة خارجة بن سنان، وكان مه إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم، وكتب لهما بسماعهما عليه في آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

ورأيت في تاريخ حلب الذي جمعه القاضي كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبي، بعد أن ذكر الاختلاف في نسبهم فقال: وقد كان المعز اسماعيل بن سيف الاسلام ابن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً في بني أمية، وادعى الخلافة.

وقال ابن خلكان:سمعت شيخنا قاضي القضاة ابن شداد يحكي عن

السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك، وقال ليس هذا أصلي.

وذكر ابن القادسي وقال: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

وقال السبط في المرآة: وهذه من هنات ابن القادسي، ماكان مملوكاً قط ولاجرى على أحد من بني أيوب رق، وإنما شادي خدم بهروز الخادم في قلعة تكريت استنابه فيها.

وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية.

الثاني: في بيان ميلاده، وبلده وأصله، ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها في اثنتين وثلاثين وخمسمائة، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دوين— بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء، آخر الحروف، وفي آخرها نون— وهي بلدة في آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج وأنهم أكراد روادية— بفتح الراء والواو، بعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء— والروادية بطن من الهدبانيه— بفتح الهاء والدال المهملة والباء الموحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة، وبعدها هاء— وهي قبيلة من الأكراد.

وقال ابن خلكان: قال لي رجل فقيه عارف بما يقول، وهو من أهل دوين: إن على باب دوين قرية يقال لها أجد انقان— بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة، وبعد الألف الثانية نون أخرى— وجميع أهلها أكراد روادية، ومولد شادي والد أيوب والد صلاح الدين بها، أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد، ومن هناك نزلوا تكريت، ومات شادي بها

وعلى قبره قبة داخل البلد، وكان شيركوه وأيوب لما كانا في بغداد خدما مجاهد الدين بهروز شحنة العراق، ورأى مجاهد الدين في نجم الدين عقلاً ورأياً حسناً، وحسن سيرة، فجعله دز دار تكريت—ودز دار بضم الدال المهملة وسكون الزاي المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء— وهو لفظ أعجمي، ومعناه حافظ القلعة، وهو الوالي، ودز بالعجمي القلعة، ودار الحافظ للقلعة، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، ثم إن أسد الدين قتل انساناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما، فأخرجهما من تكريت، ثم إنهما قصدا عماد الدين زنكي، وكان اذ ذاك صاحب الموصل، فأحسن إليهما وأقطعهما اقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده، ولما فتح عماد الدين بعلبك جعل نجم الدين دز دارها، وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً، فيقال إن الأخوين خرجا من تكريت في الليلة التي ولد فيها صلاح الدين، فتشاءموا به، وتطيروا منه، فقال بعضهم: لعل فيه الخيرة وماتعلمون، فكان كما قال. ويقال ماخرجا من تكريت إلاّ بعد ولادة صلاح الدين مدة يسيرة، أو في بقية السنة التي ولد فيها صلاح الدين، أو في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة والله أعلم.

الثالث في بيان منشأه: ولم يزل صلاح الدين في كنف أبيه حتى ترعرع، ولما ملك نور الدين محمود الشهيد ابن عماد الدين زنكي دمشق في التاريخ الذي ذكرناه، لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين يوسف وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة، ونور الدين الشهيد يرعاه ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف، والاجتهاد في أمر الجهاد، حتى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرنا مفصلاً.

الرابع: في سيرته.

قال العماد وغيره: قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً في ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه، فلايلبس إلاّ الكتان والقطن والصوف، ولايعرف أنه فعل مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الاسلام وكسر الأعداء اللئام، ويعمل فكره في ذلك وآرائه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، هذا مع مالديه من الفضائل والفواضل، والفوائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات الخمسة في أوقاتها في الجماعة، ويقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى في مرض موته، كان يدخل الامام فيصلي به، ويتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم مايقال بين يديه من البحث والمناظرة، وشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها.

قال العماد: ورأى يوماً دواتي محلاة بالفضة فأنكر علي وقال: هذا حرام، فقلت له على سبيل المداعبة: أوليس تحل حلية السلاح واستصحابه في الكفاح، ودواتي هذه أنجع ومدادها أنفع، ويراعي بذراعي القصير أطول، وسنان قناتي أحد وأقتل، فقال: ليس هذا دليل صالح، قلت: ماجمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي ولاتفرقت جموع الكفر إلاّ بكلامي، فقال: والله إن هذا مايعجبني ، فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه، وكان طاهر المجلس لايذكر أحد في مجلسه إلاّ بالخير، وكان طاهر اللسان لايذكر أحداً بسوء ولاشتم أحداً قط، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهراء، ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل، وماسمع منه كلمة فحش

قط، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافرين، ومن جالسه لايعلم أنه جالس سلطاناً، بل يعتقد انه أخ من الاخوان، وكان شديد الحياء، خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية، وكان ممن يعرض عند الناس استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه وأمرهم بالقعود عند سماع الحديث جلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عند الناس ولايطرق أبواب الملوك سعى إليه وسمع منه، وروى عنه وتردد إليه، ولم يكن في عمره كتب بيده مافيه أذى مسلم، وماحضر بين يديه يتيم إلاّ وترحم على مخلفه وجبر قلبه، وأعطاه مايكفيه، فإن كان له كافل والاّ كفله وأعطاه مايكفيه، وإنه مات ولم تجب عليه الزكاة.

الخامس: في حسن عقيدته.

كان متوكلاً على الله في كل أمره ولايلتفت إلى قول منجم، وكان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم من الصغر، وكان يأخذها عليهم.

وقال ابن كثير: وكان القطب النيسابوري جمع هذه العقيدة لأجله، وكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن العظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى أنه سمع في بعض مصافه جزءاً و هو بين الصفين، وكان يتبجح بذلك، ويقول: هذا موقف لم يسمع به أحدا حديثاً، وكان ذلك باشارة العماد، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشعائر الدين.

وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له السهروردي، وكان يعرف الكيمياء والسيمياء وشيئاً من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولده وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، وبلغ ذلك أباه

السلطان، فكتب إليه أن يقتله لامحالة، فصلبه ولده عن أمر والده كما ذكرنا في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ومن شدة محبته لسماع الحديث مضى إلى الاسكندرية وسمع من الحافظ السلفي ومن ابن عوف الضياء، وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة.

وقال ابن كثير: وكان رحمه الله قرأ مختصراً في الفقه تصنيف سليم الرازي (٣٠).

السادس: في حلمه وأخلاقه الحسنة.

وكان حليما كثيراً يعفو عن أصحاب الذنوب، حسن الخلق صبوراً على مايكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم مايكره ولايعلمه بذلك ولايتغير عليه، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسر موزه فأخطأته ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها.

وقال القاضي شهاب الدين: نفرت بغلتي يوما من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت ركبته حتى أقلقته من الوجع، وهو يبتسم، وكذلك سرق من خزانته كيسان من الذهب المصري وأبدلا بكيسين من الفلوس فلم يعمل للمباشرين شيئا سوى صرفهم.

وقال القاضي بهاء الدين: كنت يوماً عند مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل رجل حسن الهيئة ومعه مكتوب حكمي وقال لي: ياأيها القاضي خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، فقال له القاضي: بأي سبب؟ قال: إن سنقر الخلاطي مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي، فاستولى عليها السلطان، وأخرج

الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة، والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية.

قال ابن خلكان رحمه الله: ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذي في الكلاسة، وقرأت عنده وترحمت عليه، وأحضرني قيم القبة ومتولي أمرها بقجة فيها ملبوس بدنه، وكان في جملته قباء أصفر قصير ورأس كميه بأسود فتبركت به.

قال ابن القادسي: ودفن معه سيفه، وقال القاضي الفاضل: هذا يتؤكأ عليه في الجنة.

وقال السبط في المرآة: هذا وهم من ابن القادسي لأن سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد.

وقال ابن كثير: ثم إن الأفضل عمل لوالده تربة قرب الجامع، وكانت داراً لرجل صالح، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بعدما أدخله الجامع وصلى عليه صلاة ثانية،وأنفقت ست الشام بنت أيوب أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

الثالث عشر: في مدة سلطنته ، ومدة عمره، وكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة، وقد ذكرنا أن مولده كان في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

وفي تاريخ ابن العميد:وكان عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً، وكانت مدة مملكته للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وللشام قريباً من تسع عشرة سنة، قاله ابن كثير.

وفي تاريخ ابن العميد: وكانت مملكته اثنتين وعشرين سنة وسبعة

openkandar.com

المكتوب فتفحصته فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي، وأنه اشتراه من فلان التاجر في الوقت الفلاني، ولم يزل على ملكه إلى أن شذّ عنه في سنة كذا. قلت له: فما أخرك إلى هذا الوقت؟ فقال: الحقوق لاتبطل بالتأخير، قال القاضي: فأعلمت السلطان فأحضره، واستوى معه في المجلس حتى ساواه، وادعى الرجل وأظهر كتابه، فقال السلطان: عندي من يشهد أن سنقر في هذا التاريخ كان ملكي بمصر وأني اشتريته مع ثمانية أنفس، ولم يزل في ملكي حتى أعتقته، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك، فانكسر الرجل، فقلت للسلطان: يامولانا مافعل هذا إلا ليطلب صدقة السلطان فما يحسن أن يرجع خائب الأمل، فقال: هذا باب آخر، وأمر له بخلعة ونفقة جيدة وبغلة.

قال: وكان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص، فقدم له قصة، وكان السلطان قد مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح فداسها سنقر الخلاطي، ولم يعلم، وقال له: علم عليها فلم يجبه، فكرر عليه القول، فقال له: ياطواشي أعلم بيدي أو برجلي؟ فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل وتعجب الحاضرون من هذا الحلم، ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها، ومازال السلطان على هذه الأحوال دوماً حتى توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته ورضوانه.

وقدم إليه مملوك له قصة، فقال: أنا الساعة ضجر، فأخرها ساعة، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه، فلما قرأ اسم صاحبها قال: أي والله رجل مستحق، قال: فوقع له، قال: ماثم دواة، ثم نظر فإذا الدواة بعيدة عنه، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ الدواة ووقع له.

وقال القاضي: ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك وارتقب الناس أن يضرب رقبته، فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق، وسقاه ماء وثلجاً.

السابع: في شجاعته.

وكـان رحمه الله أشجع النـاس وأقواهـم بدنـاً وقلباً مـع ماكـان يعتري جسمه مـن الأمراض والأسقـام و لاسيما وهو مرابـط مصابـر مثاغـر عند عكا، فإنهم كـانوا كلما كثرت جموعهم وتـراكمت أمدادهم لايـزيده ذلك إلاّ قوة وشهامة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألـف مقاتل، وكان جملة من قتـل منهم مـائة ألف مقـاتل، وكـان يوم المصـاف يدور على الأطـلاب، ويقول: وهل أنا إلاّ واحد منكم، وكـان في الشتاء يعطي العساكر دستوراً وهونازل على مرج عكا، ويقيم طول الشتاء في نفر يسير.

وفي المرآة: وكان شجـاعاً شهماً جـواداً مجاهداً في سبيـل الله، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين.

الثامن: في كرمه وجوده.

وفي المرآة: كان يجود بـالمال قبل الوصول إليـه. ويحيل به، ومتـى عرف وصول حمل وقع عليـه بأضعافه ومـاخيب أحداً بالـرد، وإن لم يكن عنده شيء لطف به كـأنه غريم يستمهلـه، وكان مغرماً بـالانفاق في سبيل الله، ووهب مدة مقامـه على عكا مرابطاً للفرنج، مـن رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنهـا في شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة مدة ثـلاث سنين وكسر، فكـان اثنـي عشر ألــف رأس مـن الخيـل العـراب والأكاديـش الجياد للحاضرين معـه في الجهاد والقادمين عليه مـن البلاد غير ماأطلقه من الأموال في أثامن الخيل المصابة في القتال.

قال العماد: ولم يكن لـه فرس يركبه إلاّ وهو موهـوب، ولاجاءه قود إلاّ وهو مطلوب، ولارد سائلاً بلا، ولاأخجل ماثلاً، ولاخيب آملاً.

قال: وشكا إليه أيوب بن كنعان ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه.

قال: وكتب إليه سيف الدولة ابن منقذ نائبه بمصر أن بعض الضمّان انكسر عليه مال كثير، وربما وصل إلى الباب وتمحل، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل وبلغ السلطان، فأرسل إليه يقول: احذر احذر أن تقع في عين ابن منقذ.

قال: وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان، واجتمع عنده وفود بالقدس، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال، وفرق ثمنها فيهم، وأنه رحمه الله لم يخلف في خزانته إلاّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً؛ ولم يخلف عقار؛ ولابستاناً ولاقرية ولاشيئاً من الأملاك، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار باقراره، وماطلبها ولاأراه أنه عرفها، ولم يرض له بعد هذا بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

وكان إذا فتح بلداً أو أخذ اقليماً وهبه لبعض أقاربه وأمرائه وأتباعه.

التاسع: في معروفه.

قال ابن خلكان: ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإن الدولة كان مذهبها الامامية، فلم يكونوا بهذه الأشياء، فعمر بالقرافة الصغيرة المدرسة المجاورة لضريح الامام الشافعي رحمه الله، وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه، وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظافر العبيدي والعادل بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضاً، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية، ووقفها جيد أيضاً، وبنى بالقاهرة داخل

القصر مارستاناً وله وقف جيد، وله بالقدس أيضاً مدرسة وقفها كثير، وخانقاه بها أيضاً، وله بمصر مدرسة للمالكية.

وقد أفكرت في نفسي في أمور هذا الرجل وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي في القرافة مايسميها الناس إلاّ للشافعي رحمه الله، والمجاورة للمشهد لايقولون إلاّ للمشهد، والخانقاه التي بالقاهرة لايقولون إلاّ خانقاه سعيد السعداء، والمدرسة التي للحنفية لايقولون إلا مدرسة السيوفية، والتي بمصر لايقولون إلاّ مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية، وهذه صدقة السرعلى مذهب الحنفية، والعجب أنه له بدمشق في جوار المارستان النوري مدرسة يقال لها الصلاحية، فهي منسوبة إليه، وليس لها وقف، وله بها مدرسة أيضاً للمالكية ولاتعرف به، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى.

العاشر: في فتوحاته وهي على أنواع:

الأول: في البلاد الاسلامية وهي: الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة واليمن من زبيد إلى حضرموت متصلاً بالهند، ودمشق وبعلبك، وحمص، وحماه، وحلب، وأعمال هذه البلاد.

الثاني: في البلاد الاسلامية الفراتية وهي: حران، والرها، الرقة، ورأس العين، وسنجار ونصيبين، وجملين، وسروج، وديار بكر، وميافارقين، وآمد وحصونها، وشهرزور، والبوازيج، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى الفرات، ومن الفرات إلى حضرموت، ومن الغرب إلى إفريقية.

وفي المرآة: أول مافتح الديار المصرية.

الثالث: في البلاد التي أخذها من الأفرنج وغيرهم وهي: طبرية، وعكا، أما طبرية فهي على نهر الأردن فتحها بالسيف وأما عكا فهي مدينة على البحر الملح فتحها بالصلح والزيب ومعليا (٣١) ، واسكندرونة بين صور وعكا، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وحصن يحمور بالأمان، وتبنين بجبل عاملة بالتسليم، وهونين غربي بانياس بالأمان، والناصرة التي ينسب إليها النصارى، والغور قبلي صفورية بالتسليم، والصفورية غربي طبرية بالسيف والفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وجينين قبلي عفربلا بالتسليم، وزرعين ودبورية متاخمة صفورية بالسيف، وعفر بلا قبلي الطور بالتسليم، وبيسان والغور، وسبسطية من عمل نابلس بالتسليم، ونابلس مدينة مشهورة، واللجون وريحا وسنجل والبيرة بأرض القدس، ويافا بالسيف، وأرسوف بالأمان، وقيسارية بالسيف وحيفا وصرفند بأرض بيروت، وصيدا على البحر، وقلعة أبي الحسن بأرض صيدا، وجبل الجليل، وبيروت على البحر وجبيل، ومجدل يابا بأرض الرملة، ومجدل جاب، والداروم، وغزة وعسقلان بالأمان، وتل الصافية، والبرج الأحمر بساحل عكا بالسيف، وحصن النطرون غربي القدس بالأمان، وبيت جبريل بأرض الخليل بالتسليم، وجبل الخليل بالأمان، وبيت لحم مولد المسيح عليه السلام، واللدّ بأرض الرملة بالسيف، والرملة بالسيف، وقلعة السلع والوفيرة وقلعة الجمع وقلعة الطفيلة، وقلعة القرين. جميع ذلك في وادي موسى عليه السلام، وقلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف، وقلعة الشوبك بالأمان، وقلعة صفد بعد حصار مدة، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وحصن عفرى شمالي القدس بالأمان، وحصن العازرية شرقي القدس بالتسليم، وحصن قرية يابا بأرض قلنسوة شمالي لدّ بغير قتال، وحصن قاقون بغير قتال، وحصن قيمون شرقي حيفا بالسيف، وحصن يبنى قريب الرملة بالأمان، وحصن يازور غربي الرملة بالتسليم، وقلعة الفولة قبلي الناصرة بالتسليم، وشقيف بالأمان وحصن جلدك، وحصن بلنياس بين جبلة والمرقب، وحصن صهيون وريفة بالسيف، وقلعة

بلاطنس من عمل صهيون، وحصن الجماهرية شمالي صهيون، وقلعة عيد غربي جبل البرزين، وقلعة بكاس وقلعة الشغر من أنطاكية وبكسرائيل، وقلعة المروانية، وقلعة البزرين ودربساك وبغراس، وحصن الدامور وأنطرسوس، وجبلة، واللاذقية بالسيف، وقلعة برزية والبيت المقدس، وغير ذلك من القرى والمعاقل التي لم تذكر.

وفي المرآة: ويقال إنه فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين: مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديارهم، ولوعاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً، وإن كان مبدأ فتوحاته بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله، وبينهما مقاربة في السيرة والعدل والأيام، واجتناب الآثام، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة، والله أعلم.

الحادي عشر: في مرضه.

استهلت هذه السنة، وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيد في شرقي دمشق،ولقداتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعدما يفرغ من أمر الفرنج هذه المدة يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أ خاه العادل إلى خلاط، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى أذربيجان وبلاد ا لعجم.

ولما قدم الحجيج من الحجاز الشريف يوم الاثنين حادي عشر صفر خرج لتلقيهم، وقدم معهم ولد أخيه سيف الاسلام صاحب اليمن فأكرمه واحترمه، وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الحديد، فكان ذلك آخر ماركب في هذه الدنيا، وذلك أنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت السادس عشر من صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأ خذ يشكو إليهم قلقه البارحة، وأ طال الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وفصده الأطباء في اليوم

الرابع فاعتراه يبس، وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، فقوي اليبس أيضا، فأحضر الأمراء والأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي نائباً على ملك دمشق، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبو جعفر امام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جدّ جديد بالأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في الغمرات، فقرأ:(هوالله الذي لاإله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة) (الحشر٢٢) فقال: هو كذلك صحيح، فلما أذن للصبح جاء القاضي الفاضل يدخل عليه وهو بآخر رمق، فلما قرأ القارىء:(لاإله إلاّ هو عليه توكلت) (التوبة١٢٩) تبسم وتهلل وجهه إلى رحمة الله تعالى.

وقال العماد: وجلس السلطان ليلة السبت السادس من صفر في مجلس عادته ومحل سعادته ونحن عنده في أتم انبساط، وأتم نشاط، حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن نحدثه، ثم صلى به وبنا إمامه، وحال قيامه انفصلنا بإحسانه مغتبطين وبإنسانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا في الايوان ننتظر خروجه لوضع الخوان، فخرج بعض الخدم، وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام، فجاء وتربع في دسته، وجلس بسيمته وسمته، وتطيرنا بتلك الحال، وتفللنا بحد ذلك الفال، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وتوفي إلى رحمة الله تعالى.

وقال النويزي: خرج السلطان إلى شرقي دمشق متصيداً، فغاب خمسة عشر يوما وصحبته أخوه الملك العادل، ثم عاد إلى دمشق، وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده، ومضى إلى الكرك، وأقام السلطان بدمشق، ثم ركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر، ولقي الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم، ثم عاد إلى القلعة فلحقه تلك الليلة كسل عظيم وغشيته

حمى وأخذ المرض في التزايد، ثم حدث به رعشة وغاب ذهنه، واشتد الارجاف بموته، وحزن أهل دمشق حزنا عظيماً لذلك.

وقال القاضي بهاء الدين: لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبني فحضرت عنده، فسألني عمن في الايوان، فقلت: الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال.

ولما كان بكرة يوم الخميس استحضرني فحضرت عنده وهو في صفة البستان وعنده أولاده الصغار وقال لي: أكلت شيئاً اليوم؟وكانت عادته المباسطة، ثم قال: أحضروا لنا مايتيسر، فأحضروا رزاً بلبن ومايشبه ذلك، فأكل وماكنت أظن أن عنده شهوة لأن بدنه كان ملتاثاً ممتلئاً فلما فرغنا قال: ماالذي عندك من خبر الحاج؟ فقلت: قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم فقمت من عنده ولم أجد من النشاط ماأعرفه منه، ثم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحجاج، وكان فيهم سابق الدين الياروقي، وكان كبير الاحترام للمشايخ، ثم لحقه ولده الملك الأفضل، ثم رجع إلى القلعة وكان آخر ركوبه.

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً،فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وأصبح في يوم السبت السادس عشر من صفر وعليه أثر الحمى، ولم يظهر ذلك للناس، فدخلت أنا والقاضي الفاضل وولده الأفضل عنده، وطال الحديث بيننا، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، ومد الطعام في الايوان وجلس الأفضل في موضعه خالياً وولده فيه، ثم أخذ مرضه يتزايد ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، وكان طبيبه الذي ألف مزاجه غائباً، وحضرت

الأطباء ففصدوه فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، ولم يزل المرض يتزايد، فاشتد في السادس والسابع والثامن، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب، واشتد الرجيف في البلد وخاف الناس، ونقلوا الأقمشة من الأسواق، وغشي الناس من الكآبة والحزن مالايوصف، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً، وأقمنا على العادة نتردد، ثم أ صبحنا في الحادي عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب، وسألنا عن حاله، فأخبر جمال الدولة اقبال أنه عرق حتى نفذ عرقه إلى الفراش، ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض، وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً وضعفت قوته، ولما رأى ولده الأفضل ماحل به وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس، فجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه واستحضر القضاة فعملوا نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، ثم للأفضل بعد وفاته، فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود الشحنة أخو بدر الدين مودود، ثم ناصر الدين صاحب صهيون فحلف وزاد أن الحصن الذي في يده له، ثم سابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق، واعتذر بأنه ماحلف به، ثم خشترين الهكاري، ثم أنوشروان الزرزاري فحلف واشترط أن يكون له خبز يرضيه، ثم حلف علكان ومنكلان، ثم مد الخوان فأنهوا.

ولما كان العصر أعيد مجلس التخليف فأحضر ميمون القصري، وشمس الدين سنقر الكبير، وقالا: نحن نحلف بشرط أن لانسل سيفاً في وجه أحد من أخوتك، وحضر سامة وقال: ليس لي خبز فعلى أي شيء أحلف، فروجع فحلف بشرط أن يعطى خبزاً يرضيه، وحضر سنقر المشطوب وأيبك الفارس وأيبك الأفطس ولم يحلف بالطلاق، وحضر سياروخ وحلف واشترط رضاه، وحضر حسام الدين بشارة وحلف،

وكان مقدماً على هؤلاء، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين، ونسخة اليمين:

« إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته، وإني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، ممتثلاً أمره، واقفاً عند مراضيه، ثم من بعده لولده الملك الأفضل علي، ووالله انني في طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وأمتثل أمره ونهيه، وباطني وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل».

ثم لما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتد مرضه وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل وابن الزكي في تلك الليلة، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير الفاضل ذلك، وقال: المصلحة نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، فإنه رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إذا استحضر السلطان بالليل يحضر عنده ويحول بينه وبين النساء، ويذكره بالشهادة، ففعلوا ذلك، وكان ذهن السلطان غائباً من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلاّ في الأحيان، وبات في تلك الليلة على الانتقال والشيخ أبو جعفر عنده يقرأ القرآن ويذكره بالله إلى أن توفي رحمه الله.

الثاني عشر: في تاريخ وفاته.

قال القاضي بهاء الدين: كانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وفي تاريخ بيبرس: وقيل توفي في الخامس والعشرين من صفر.

وفي المـرآة وكـانت وفـاته يـوم الأربعـاء بعـد صلاة الفجـر السـابع والعشرين من صفر.

وفي تـاريخ ابن العميد: وكـانت وفاته بكـرة يوم الأربعاء لثـلاث بقي من صفر، وكلام الكل قريب بعضه من بعض.

وفي المـرآة: وغسله الخطيب الـدولعي وصلى عليـه القاضـي محيي الدين بن الـزكي، وبعث له القاضي الفاضل الأكفـان والحنوط من أحل الجهات ، ودفن بدار البستان موضع جلوسه في قلعة دمشق.

وقال ابن خلكـان: كان يوم موتـه يوماً لم يصـب الاسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفـاء الراشدون، وغسله الدولعي، وهو ضيـاء الدين أبو القـاسم عبـد الملـك بن زيـد بن يـاسين بـن قـائد بن جميـل التغلبي الأرقمي الدولعـي الشافعي، خطيب جامـع دمشق، توفي في ثـاني عشر ربيع الأول مـن سنة ثمـان وتسعين وخمسمـائة، ودفن بمقـابر الشهـداء بباب الصغير.

قال: ثم أخرج تابوت السلطـان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب فقط، فارتفعـت الأصوات عنـد مشاهـدته وعظم الضجيـج، وأخذ النـاس في البكـاء والعـويل، وصلـوا عليـه أرسـالاً، ثـم أعيـد إلى الـدار التـي في البستـان، وهي التي كـان متمرضـاً بها، ودفـن في الصفة الغـربية منهـا، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

ثم إنـه بقي مـدفونـاً بقلعـة دمشق إلى أن بنيـت له قبـة في شمـالي

وأربعين يوماً، أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الأربعاء تتمة خمسمائة وثمانين سنة وسبعة وخمسين يوماً للهجرة ، ولتمام ستة آلاف سنة وستمائة وأربعة وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية.

الرابع عشر: فيما جرى يوم وفاته.

قال ابن كثير: وجلس الملك الأفضل للعزاء في القلعة وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر، وإلى الملك الظاهر غازي بحلب، وإلى عمه الملك العادل بالكرك، وقد ذكرنا أنه كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر في أمرها.

قال المؤيد في تاريخه: ولما نقل الأفضل والده السلطان من القلعة حين بنى له تربة مشى بين يدي تابوته وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل الجامع ووضع قدام النسر، وصلى عليه القاضي محيي الدين ابن القاضي زكي الدين، ثم دفن وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام في الجامع،وأنفقت ست الشام في هذه النوبة أموالاً عظيمة.

وفي المرآة : وكتب الفاضل إلى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه: « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة» الآية: (الأحزاب ٢١) .

كتبت إلى الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه في مصابه، وجعل الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه، كتبت والدموع قد حفرت النواظر، والقلوب قد بلغت الحناجر،وإني ودعت أباك مخدومي وداعاً لانلتقي بعده، وأسلمته إلى الله طالباً فضله ورفده، ولم يدفع عنه جنوده المجندة القضاء ، ولاردت عنه الأسلحة والخزائن البلاء، فالعين

تدمع والقلب يخشع، ولا نقول ما يسخط الرب - وإنا عليك يايوسف لمحزونون».

وفي آخر الكتاب: « فإن اتفقتم فما عدمتم إلاّ شخصه الكريم، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبلة هولها عظيم».

قال السبط في المرآة: وقد فات الفاضل شيئان: أحدهما عند قوله: ودعته وداعاً لانلتقي بعده، وكان الأولى أن يقول: إلى جنات النعيم، والثاني: عند قوله: وهولها عظيم، وكان ينبغي أن يقول: (ذلك تقدير العزيز العليم) (يس : ٣٨).

وفي المرآة: وكان أخوه العادل لما توفي السلطان بالكرك، فقدم دمشق معزياً للأفضل، فأقام أياماً، ثم رحل إلى الجزيرة التي أعطاها إياه السلطان، وهي: حران، والرها، وسميساط، والرقة، وقلعة جعبر، وميافارقين، وديار بكر، وكان له بالشام : الكرك ، والشوبك.

وبعث الأفضل القاضي ضياء الدين الشهرزوري رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان، وسيفه، وحصانه،وكزاغنده، ودبوسه، وتحفاً كثيرة ، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد، وكتب كتاباً فمنه :« أصدر العبد خدمته هذه، وصدره معمور عليه بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء»، وذكر كلاماً طويلاً.

وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه، واستشاروا عز الدين صاحب الموصل، واستشار هو أصحابه، فأشار عليه المجد ابن الأثير بالخروج، وأشار عليه مجاهد الدين قيماز بالمقام لتظهر حقائق الأمور، وتراسل جيرانه: ابن زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه صاحب الجزيرة وعماد الدين صاحب سنجار، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران، واستنجد العادل بأولاد أخيه فجاءته عساكر الشام

ومصر، ومرض عز الدين على نصيبين بالاسهال ، وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع إلى الموصل جريدة، فمات بها على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

ثم إن الملك العزيز قدم إلى الشام، وقدمت معه العساكر على الأفضل، وبعث إليه العادل: ارحل إلى مرج الصفر، فرحل وهو مريض، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد، لتصل العساكر، فوصل الظاهر من حلب، والمنصور من حماة، وشيركوه من حمص، والأمجد من بعلبك في نجدة الأفضل، فقال العادل: قد تقرر أنه يرجع إلى مصر، ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه.

واشتد مرض العزيز، ولولا مرضه لما صالح، فأرسل العزيز كبراء دولته: فخر الدين شركس وغيره فحلف الملوك، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون، ورجع كل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان، وتمام هذه في السنة التالية انشاء الله تعالى.

قال العماد الكاتب: ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل في اللهو واللعب، واحتجب عن الرعية ، وانقطع إلى لذاته، وفوض الأمر إلى وزيره الجزري، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سببا لزوال دولته، واستبدلا بكبراء الأمراء الأجناد وأرذال الناس، ففسدت أمور العباد.

الخامس عشر: فيمن خلفه من الأولاد.

قال العماد الكاتب: خلف السلطان سبعة عشر ولداً ذكراً، وابنة صغيرة.

الأول: الملك الأفضل نور الدين علي، وهـو أكبرهم، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة ليلة عيد الفطر.

الثـاني: الملك العـزيز عمـاد الديـن عثمان، أبـو الفتح، ولد بمصـر أيضاً، في جمادى الأولى سنة سبع وستين.

الثالث: الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل.

قـال ابن خلكـان وكنيتـه أبـو الكـرام وأبو العبـاس الخضـر، ويقـال المشمـر لأن أباه لمـا قسم البـلاد بين أولاده الكبـار قـال: أنا مشمـر ، فغلب عليه هذا اللقب، وكان مولده فـي القاهرة في خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمـائة، وتوفي في جمـادى الأولى سنة سبع وعشـرين وستمائة بحران عند ابن عمه الملك الأشرف بن الملك العادل.

الرابع: الملك الظاهر أبو منصور غيـاث الدين غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين.

الخامس: الملك المعـز فتح الدين أبو يعقوب اسحق، ولـد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة

السادس: الملك المؤيـد نجم الدين أبو الفتح مسعـود: ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز.

السابـع: الملك الأعز شـرف الدين أبـو يوسـف يعقوب، ولـد بمصر سنة اثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً.

الثامن: الملك الزاهر محيي الدين أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الظاهر.

التاسع : الملك المفضل قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين، وهو شقيق الأفضل.

العاشر: الملك الأشرف أبو عبد الله عز الدين محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين.

الحادي عشر : الملك المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الأشرف المذكور.

الثاني عشر: الملك المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهي السنة التي أخرب فيها العدو من التتار مدينة حلب وغيرها.

الثالث عشر: الملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب، ولد في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق المعز .

الرابع عشر: الملك الغالب نصير الدين أبو الفتح ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم.

الخامس عشر: الملك المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان.

السادس عشر: عماد الدين شادي لأم ولد.

السابع عشر: نصرة الدين مروان لأم ولد أيضاً.

وأما البنت مؤنسة خاتون ، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج في حياته، كالملك المنصور حسن، والأمير أحمد، وهو الذي رثاه العرقلة بقوله:

أي هلال كسفا ... وأي غصن قصفا
كان سراجا قد طفا ... على الورى ثم انطفى
لم يركب الخيل ولم ... يقلدوه مرهفا
قل للنحاة: ويحكم ... أحمدكم قد صرفا
صبراً صلاح الدين يا ... رب السماح والوفا (٣٢)

السادس عشر : فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان.

ولما توفي السلطان رحمه الله استقر في الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها: ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وبالديار المصرية: الملك العزيز عثمان، وبحلب وبلادها: الملك الظاهر غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية والفراتية : الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقي الدين عمر، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن

obeikandi.com

فرخشاه بن شاهناه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر: شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي، وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح الدين بصرى، وهو في خدمة اخيه الملك الافضل ، وبيد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون :منهم سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شيزر وأبوقبيس، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية،وبدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر،وعز الدين سامه بيده كوكب وعجلون ، وعزالدين ابراهيم ابن شمس الدين ابن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وأفامية.

والملك الافضل هو الأكبر من أولاد السلطان . والعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الاثير، مصنف المثل السائر ، وهو أخو عز الدين ابن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل ، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ، ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر.

ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ، فمال إلى ذلك ، وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وكان اليمن بمعاقله ومخاليفه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، أخي السلطان صلاح الدين ، ثم بعد ذلك شرعت الأمور تضطرب وتختلف ، وتفاقمت الأحوال حتى آل الأمر إلى ماإليه آل ، واستقرت الممالك واجتمعت المحافل على أخي السلطان صلاح الدين ، وهو الملك العادل ، وصارت الممالك في أولاده الا ماجد الأفاضل كما سنوضحه ان شاء الله تعالى.

السابع عشر : في مراثي السلطان صلاح الدين .

وقد عمل فيه الشعراء المراثي الكثيرة ، من أحسنها ماعمل فيه العماد الكاتب في آخر كتاب البرق الشامي ، وهي مائتان وثلاثون بيتاً وقد سردها الشيخ شهاب الدين في الروضتين...

الثامن عشر : في مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم : ابن قلاقس ، وابن الذروي ، وابن المنجم ، وابن سناء الملك ، وابن الشاتاني ، والبحراني الإربلي ، وابن دهن الخصا الموصلي ، ومحمد بن اسماعيل بن حمدان وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب في غالب أحواله من غزواته وفتوحاته وغير ذلك ، ومدحه في فتح القدس بقصيدة هائية ذكرناها في موضعها ومدحه القاضي رشيد الدين بن النابلسي بقصيدة انشده اياها بمرج عكا....

التاسع عشر : في قضاته ووزرائه وكتابه .

وأما قضاته: كمال الدين بن الشهرزوري ، وشرف الدين بن أبي عصرون ، وولده أبو حامد ، ومحيي الدين بن زين الدين ، وهؤلاء كانوا في الشام وحلب ، وأما قضائه في مصر ، فكان القاضي جلال الدين ابو قاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصوري وكان قدم من الشرق ، فولاه السلطان صلاح الدين ، وكان عنده بمكانة، وصرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولي مكانه القاضي زين الدين علي بن سعيد الدمشقي في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة.

وأما وزيره فكان صفي الدين بن القابض.

وأما كاتبه فكان القاضي الفاضل ، العماد الكاتب ، وكان الفاضل

حاكماً على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لايصدر السلطان إلا عن رأيه ، ولايمضي في الأمور بمر إلا بمراجعته

قال ابن خلكان : كان القاضي الفاضل تعلق بالخدم في ثغر الاسكندرية ، واقام به مدة ، ثم آل أمره إلى أن وزر للسلطان صلاح الدين ، وترقى في منزلته عنده على مانذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى.

العشرون :في ذكر من كان في البلاد ولاة الأمور في سنة وفاته

كان في دمشق الملك الأفضل ، وكان في حلب الملك الظاهر ، وكان في مصر الملك العزيز ، كل هؤلاء أولاد السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وكان في القدس عز الدين جرديك النوري ، ولما بلغ العزيز وفاة والده صلاح الدين أرسل عشرة آلاف دينار إلى القدس الشريف لتنفق في العسكر المقيم به، فخطب له عز الدين جرديك بالقدس ، وخشي من نقض الهدنة بينه وبين الأفرنج فأرسل إلى القدس عسكراً احترازاً من الأفرنج ، وكان في الروم ركن الدين سليمان ابن عز الدين قليج رسلان السلجوقي ،وكان في الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر ، وكان في أخلاط وماوالاها بكتمر ، وكان في مرو وغيرها سلطان شاه، وكان في همذان وغيرها السلطان طغرل شاه السلجوقي ، وكان في غزنة وماوالاها شهاب الدين الغوري، وكان في بلاد سمرقند وغيرها خوارزم شاه، وكان في اليمن سيف الاسلام طغتكين بن أيوب ، وكان في مكة الأميرداود، وكان في بلاد المغرب يعقوب بن عبد المؤمن رحمهم الله، وهذا آخر ماانتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين رحمه الله.

الحواشي

١ـ الحديث هنا عن سقوط طرابلس الغرب لاطرابلس الشام التي احتلها الفرنجة سنة ٥٠٢ هـ/
٢ـ سلف الحديث في الجزء الاول من المدخل حول قيام الاسرة المنقذية ، وأنهم ملكوا شيزر في أواخر عصر المرداسيين.
٣ـ ابو الفداء صاحب حماه ومصنف كتاب المختصر في أخبار البشر ويبدو أنه قد فاته أن بلدة شيزر سقطت مع انطاكية وجزء كبير من ساحل الشام للبيزنطيين منذ أيام سيف الدولة الحمداني .
٤ يبدو أن مصدر العمري هنا كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد للشاعر عمارة اليمني ، انظر ص ٢٢٩ ـ ٢٣٧ ط. اليمن ١٩٧٩.
٥ـ الشاذياخ مدينة نيسابور نفسها . معجم البلدان، ولمزيد من التفاصيل حول حوادث نيسابور انظر الكامل لابن الاثير ط. القاهرةـ مطبعة الاستقامة ج٩ ص ٥٩ ـ ٦٠.
٦ـ كذا ولا أدري من أين جاء بالنسب الصنهاجي الى أئمة الاسماعيلية في ألموت؟
٧ـ سورة البقرة ـ الآية . ٢١٦.
٨ـ سورة النساء ـ الآية: ١٢
٩ـ ديوان العرقلة ص ٥٢
١٠ـ سورة الانعام ـ الآية : ٤٤
١١ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٤٢
١٢ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ١٩٢ـ ١٩٥
١٣ـ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٢١٨
١٤ـ في المصادر الأخرى المتقدمة: سمى نفسه السلطان الناصر

١٥ـ مصدر العمري هنا الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٢٣١
١٦ـ نسبت هذه الجماعة الى محمد بن كرام السجزي [ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م] وكان يقول إن الله تعالى مستقر على العرش وأنه جوهر، الاعلام للزركلي.
١٧ سورة آل عمران ـ الآية :٥٣
١٨ـ الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٢٤٩.

١٩ـ سورة الحجرات ـ الآية :٢٠
٢٠ـ سورة الفرقان ـ الآية : ٦٣
٢١ـ سورة البقرة الآية : ٢٧٥
٢٢ـ أي قليل الماء.
٢٣ـ هذا وهم فالفرنجة لم يستطيعوا قط قهر مدينة حلب .
٢٤ـ سورة الزلزلة ـ الآتيان: ٧ـ ٨
٢٥ـ سورة يوسف ـ الآية :٢٣٩٢ـ سورة التوبة ـ الآية : ١١١
٢٣ـ ديوان عرقلة الكلبي ص ٨٧
٢٤ـ عفيف بن المبارك بن الحسين ـ انظر مرآة الزمان ج١ ص ٢٣٥
٢٥ـ سورة الرعد ـ الآية : ١١
٢٦ـ سورة البقرة ـ الآية : ٢١٦
٢٧ـ سورة النساء ـ الآية : ١٢

٢٨ـ سورة النحل ـ الآية : ٩١
٢٩ـ سورة القصص ـ الآية :٨٣
٣٠ـ سورة يوسف الآية : ٧٧
٣١ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين.
٣٢ـ البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٣
٣٣ـ انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٢
٣٤ـ زيد مابين الحاصرتين من الروضتين
٣٥ـ زيد ما بين الحاصرتين من الروضتين
٣٦ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢
٣٧ـ هما الآن: ازرع والشيخ مسكين ، في حوران سورية ، الشيخ مسكين على الطريق الدولي من دمشق الى درعا، وازرع الى الشرق منها على مسافة قصيرة.
٣٨ـ سورة المدثر ـ الآيتان : ٥٠ـ ٥١
٣٩ـ سورة التوبة ـ الآية : ٣٢

obeikandl.com